مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد11/ العدد: 01 (2023)، ص: 215-226

المنهج وإعادة البناء عند جون ديوي

Method and Reconstruction when John Dewey

ط.د. بلوط صابرينة، أ.د. سواريت اعمر[2]

[1] جامعة وهران كلية العلوم الاجتماعية(وهران)، sabrina.bellout@univ-tiaret.dz

[2] جامعة وهران كلية العلوم الاجتماعية(وهران)، sarauteamar@yahoo.fr.

تاريخ الاستلام: 2023/01/07 تاريخ القبول: 2023/02/18 تاريخ النشر: 2023/03/05

ملخص:

ما بين التجديد والإصلاح، وإعادة البناء والعمل على تأطير الفكر علميا وعمليا، اخترنا المنهج عند رائد الفلسفة التقدمية وفيلسوف التجديد جون ديوي، كواحد من أهم فلاسفة الإصلاح في عصره، والذي حمل على عاتقه مهمة إعادة البناء، لتكون عنوانا لأهم مؤلفاته " التجديد في الفلسفة"، فلم يقتصر التجديد على المعرفة بل هو تجديد في الحياة

ما دفعنا إلى التركيز على المنهج الأداتي التجريبي (منهج التقييم النقدي) عند جون ديوي في بعده الإصلاحي خاصة في مجال الفلسفة والتربية مقومات البناء الديوي، وكل ما يرتبط بذلك مثل الخبرة ودورها الوظيفي ومنهج الذكاء التطبيقي والديمقراطية بأبعادها الإنسانية في شكل تفاعل مستمر بين الفرد وواقعه، مما يسمح بخلق فرصا للإبداع، إبداع يصبح فيه الفرد أساس كل تطور اجتماعي وبناء علمي.

كلمات المفتاحية: المنهج، التجديد، التربية، الفلسفة، الخبرة، إعادة البناء.

Abstract:

Between renewal and reform, rebuilding and working on framing thought scientifically and practically, we chose the

approach of the pioneer of progressive philosophy and the philosopher of renewal John Dewey, as one of the most important philosophers of reform in his time, who took upon himself the task of rebuilding, to be the title of his most important work "Renewal in Philosophy" Renewal is not limited to knowledge, but it is renewal in life.

What prompted us to focus on the experimental instrumental approach (the critical evaluation approach) of John Dewey in his reformist dimension, especially in the field of philosophy and education, the elements of Dewey construction, and everything related to that, such as experience and its functional role, the applied intelligence approach, and democracy with its human dimensions in the form of continuous interaction between the individual and his reality. Which allows creating opportunities for creativity, creativity in which the individual becomes the basis of all social development and scientific construction.

Keywords: curriculum, renewal, education, philosophy, experience, reconstruction.

***المؤلف المرسل:** صابرينة بلوط

1. مقدمة

تثير إشكالية الإصلاح والتجديد وإعادة البناء اهتمام كبار المفكرين والفلاسفة، لما لها من أهمية في مجال البحث العلمي والمعرفي، الأمر الذي استدعى ضرورة تسخير مختلف الوسائل والأدوات في شكل مناهج للإصلاح والتجديد ولعل شغف جون ديوي المعرفي وحلمه الإنساني وأمله الديمقراطي والاجتماعي جعله يؤمن بقيمة هذه المناهج ويتخذها سبيلا لتحقيق مرامي فلسفته البراغماتية

بمنهجها الأداتي، المنهج الأداة التي تعين صاحبها على التطور والتقدم والتجديد ليس على المستوى المعرفي فقط بل هو تجديد في الحياة وكل ما يرتبط بها.

ليبدأ مشروع ديوي الإصلاحي فيكون منعرجا حاسما ومهما في تاريخ الفلسفة البراغماتية خاصة وتاريخ الفلسفة العامة، بعدما كان اهتمام الفلسفة التقليدية ضيق الأفق في شكل تساؤلات نمطية عطلت حركة الفكر متسببة في جمود معرفي غاب عنه السؤال الحقيقي والمتمثل في إعادة البناء والإصلاح.

إذ تعد فلسفة جون ديوي الذرائعية وتحديدا المنهج الأداتي عنده تحولا معرفيا بلور من خلاله فلسفة جديدة وفكر جديد لا يهدم القديم وإنما يحاول إعادة بنائه واستحداثه، بمساءلته ومعرفة مواطن ركوده، لأجل تنشيط حركة الفكر وتفعيل طاقات البناء أو إعادة البناء التي تسمح بفهم الواقع ومحاكاته، وبالتالي رسم معالم الحياة بما في ذلك الوجود الإنساني والاجتماعي والتربوي والثقافي.

هذا وقد وجد ديوي ضالته في المنهج الأداتي بكل مرجعياته التجريبية والعلمية التي ساهمت في تطوره، ليساهم هو بدوره في تطوير الفلسفة اجتماعيا فلم تكن الفلسفة في يوم ما بعيدة عن هذا التوجه الجماعي وعن حضورها المكثف داخل المجتمع، ومن ثم مهمة الفلسفة بما هي نقدية تمس حركة الإنسان في محيطه ومجتمعه وكل ما يرتبط بهذا وذاك.

وبالتالي آن الأوان للفلسفة بمهمة جديدة، تجعل من الواقع والمجتمع ملاذا لطرح قضاياها والتي هي منه وإليه، لاسيما والتقدم العلمي والمعرفي في شكل تفاعل مستمر يجري واقعيا بين ذهن الإنسان وما يحيط به بصورة حركية تجريبية تؤطر لمبدأ الاستمرارية التفاؤلية في الحياة التي تؤسس لتنوع فكري شامل ومتجدد باستمرار، في مزاوجة بين الإنسان وواقعه، واقع الإنسان المتحرر المتفائل، الإنسان الديمقراطي، الإنسان المجدد.

هذا تحديدا ما ذهبت إليه البراغماتية والمنهج الأداتي عند ديوي تماشيا وما يتطلبه العصر من تجديد في أدوات التفكير من اجل مواكبة رحلة الحياة على وعي وبصيرة، وبالتالي البحث منهجيا ومنطقيا في جملة المقومات والمبررات والميكانزمات التي اعتمدها ديوي في بحثه عن التجديد.

وعليه نطرح الإشكال التالي: ما طبيعة المنهج وإعادة البناء عند ديوي؟ وفيما تكمن قيمته الاجتماعية؟، وما أهم مقوماته المعرفية؟

2. المنهج بين الأداتية والتجريبية:

يعد المنهج أهم خاصية علمية معرفية، لها من القدرة على إظهار النجاح والتقدم، ولما كانت نظرية جون ديوي المنطقية تقوم على الفكرة وسيلة لكل معرفة وتبعا لذلك أصبحت منهجيته تقوم على استخدام نتائج البحث كوسائل للدلالة على صدق القضايا، خاصة إذ ما ارتبط الصدق بالنفع هذا الأخير الذي يمثل احد أهم مطالب الفكر البراغماتي الذي يجمع بين الصدق والنفع، فالصدق ليس صدقا إلا لأنه نافع وليس نافعا إلا لأنه وسيلة تستجيب لواقع الإنسان.

(جيمس،1965، ص241).

وكلمة منهج تدل على مجموعة منظمة من العمليات تسعى لبلوغ الهدف كما يدل على كيفية تصور العمل حول موضوع دراسة ما والتخطيط له، وعموما المنهج هو الطريق الذي يؤدي إلى اكتشاف الحقائق ويكون ذلك عن طريق مجموعة من القواعد والوسائل يتبعها الباحث للوصول إلى هذه الحقيقة، باختصار هو وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة. (قاسم محمد، 1999، ص52).

الأداتية نزعة براغماتية وضرورة منهجية بامتياز، ذلك لان الطابع العام لفلسفة جون ديوي يتسم بروح الأداتية وترجع دعائم منهجه الأداتي إلى دراسته للطريقة التي يعمل بها الفكر في مواجهة مشكلاته وبحثه عن الحلول الناجعة حيث توصل إلى حقيقة مفادها أن التفكير في جوهره هو حل لكل المشكلات التي

تثيرها المعرفة لا من حيث حقيقتها المطلقة، بل من حيث فعاليتها، ذلك أن للحقيقة علاقة ملازمة كليا للاختبار البشري وان المعرفة أداة في خدمة الفعالية فالحقيقة تكمن في كونها (مفيدة)، (ناجعة)، (مرضية)، (إبراهيم، 1968، 32).

وفقا لهذا سميت فلسفة جون ديوي بالذرائعية حيث اعتبر أن للعقل وظيفة بيولوجية تتخذ من الفكر أداة ووسيلة للعمل على نحو ما يحقق به الإنسان من تغيير في مجتمعه، والأداتية كمصطلح اشتقه جون ديوي من جراء قراءته لوليام جيمس الذي اعتبر أن العقل أداة فعالة نشيطة مهمته أن يوائم بين الكائن وبيئته مواءمة تعين صاحبه على البقاء، فهو أداة بيولوجية كسائر أعضاء الكائن الحي وسعيها إلى تسخير أدوات البقاء والنجاة في مواجهة مواقف الحياة. (عبد الهادي، 2008، ص167).

ما جعل من البراغماتية أو الذرائعية عند جون ديوي تتقاطع إلى حد بعيد مع التجريبية Empirisme باعتبارها أهم مرجعية فكرية لديه، فالمذهب التجريبي كخطاب للعالم الواقعي لابد أن يكون حاضرا أمام منبهات الإحساس نافيا وجود مصادرات بوصفها مبادئ معرفية أساسها الاختبار، واعتبار عالم الأشياء منفصل عن الذات وذلك باستخدام المناهج الموضوعية على أسس تجريبية وليس على أسس استطاع أن يحقق مطالب المنهج الأداتي الذي اعتبره ديوي المنهج الملائم للتفكير في الحياة المعاصرة. (عبد المنعم، 1996، ص69).

تأثر ديوي بالمنهج التجريبي، فاخذ برأي "بيكون" في معارضته للمنطق الأرسطي باعتباره منطق صوري يدعو إلى السيطرة العقلية لا الواقعية، وقد صرح بهذا قائلا في مؤلفه تجديد في الفلسفة "ولكن لم يفت بيكون مع ذلك أن يحمل على طريقة أرسطو ذاتها، فقد كانت في أدق أشكالها ترمي إلى الإقناع، ولكن البرهنة والإقناع عليها يرميان إلى السيطرة على العقل لا على الطبيعة ...".

(ديوي، 1957، ص95).

فالقيمة المعرفية والعلمية للمنهج التجريبي تؤكد على ضرورة إتباعه والاقتداء به، لأنه السبيل الوحيد لمعرفة العالم معرفة حقيقية، معرفة واقعية تزيد من سيطرة الإنسان على الطبيعة وبالتالي فرض سيادته عليها.

ما دفع ديوي إلى المواءمة بين التجريبية والأداتية ضمن السياق العام لمنهجه العلمي خاصة وان التجريبية تعبر عن الخبرة التي تعد أساس لكل بناء معرفي عند ديوي، ما جعل مذهبه الفلسفي بحكم واقعيته واحتكامه للعمل والتطبيق في إطار الخبرة والتجربة بأخذ اسم الطبيعانية التجريبية Empirical Naturalism .

(جديدي، محمد، 2004، ص45).

حيث نجد جون ديوي بإشارة إلى مذهبه يستخدم إصلاحين مختلفين هما الفلسفة الأداتية Instrumantalisme تارة، والفلسفة التجريبية Expenimentalisme تارة أخرى، مركزا على دور التجريبية كمنهج ضروري لتنشيط ادوار الخبرة وبالتالي فرض أسس تجريبية أداتيه لا تعني التقبل السلبي بقدر ما تعني ضربا من التجريب أو البحث الايجابي. (إبراهيم، 1968، ص70).

حاول ديوي ربط المنهج التجريبي الذي وضعه بيكون بالشؤون الإنسانية والاجتماعية لتأسيس منهجه الأداتي واتخذ من خطواته الثلاث (الملاحظة والفرضية والتجربة) دعامة للتفسير المنطقي وأسس نظريته في البحث والتي تقوم على مراحل مترابطة حيث تبدأ بالمشكلة وتنتهي بالحل الذي يمثل نتائج البحث والتي تصبح بدورها أدوات ووسائل يستخدمها الفكر في مواجهة مشكلات أخرى فالأفكار في المنهج الأداتي مهما بلغت من نتائج ناجحة ومهما حققت من انسجام ذاتي وجب إخضاعها لمحك التجريب العلمي لتكون أدوات صالحة لأعمال ممكنة.

(رالف، 1964، ص211).

فالفلسفة التي تبناها ديوي تخرج من الكونية لترسم طريقا منهجي مدعم بالمنهج العلمي والتجريبي ما جعلها تتميز بطابعها العلمي في كل مجالاتها التي ترتبط

بالواقع ومعضلاته الاجتماعية التي تواجه الإنسان، فعني وكما سلف الذكر منهجه بالتقدم العلمي والتجديد المعرفي، الذي يدعو إلى تسخير كل الوسائل العلمية والعملية، فاتخذ من نتائج العلم الذرائع لخدمة الحياة نظرا إلى التفكير كأداة تمكن الإنسان من تنظيم المجتمع وربطه بمعطيات الواقع.

وبالتالي التوجه دوما وأبدا إلى الطبيعة ملاحظا ومجربا، بالموضوعات التي تكشف عن اتصالها بالواقع جديرة بالبحث العلمي، أما الأفكار البعيدة عنه فهي من قبيل الميتافيزيقيا ومن ثم ضرورة التوجه إلى الطبيعة بغية استنطاقها وتطويعها والسيطرة عليها عن طريق الاكتشافات والتجارب العلمية في سياق تربوي يهدف أساسا إلى تحقيق النفع للإنسان لتصبح الطبيعة أداة بدورها ضمن باقي أدوات المنهج عند ديوي. (ديوي، 2010، ص61).

هكذا تحولت مهمة العقل من مجرد أداة وجدت للمعرفة كما كان معروف من قبل لتصبح وظيفة جديدة مع ديوي فتتخطى حدود المعرفة في كونه مجرد أداة لها إلى أداة لتطوير الحياة وتنميتها وبالتالي ربط وظيفة العقل بالبعد الأداتي حيث يصبح التفكير كأداة تمكن الإنسان من تنظيم المجتمع.

يرجع هذا إلى إيمان ديوي بالتجريبية، باعتبار العقل نتاج التطور البيولوجي فهو أداة وجب إخضاع فعاليتها ووظيفتها للتجريب والتقييم، ما جعله يفتح صف تجريبي في جامعة شيكاغو سعيا منه إلى تنشيط البحث التجريبي العلمي والعملي وإتباع المنهج التجريبي خاصة وان العلم يساعد على الإنتاج المعرفي وحتى تكتمل مطالب جون ديوي الأداتية كان لابد من تعديل وتحديث جملة المقومات التي من شانها تحقيق أهداف فكره الإصلاحي ومنهجه الأداتي وعليه نطرح التساؤل التالي: ما مقومات التجديد التي استهدفها المنهج عند ديوي، وما أهم مبرراته لذلك؟.

3. الفلسفة من التقليد إلى التجديد "المهمة المنتظرة":

عمل ديوي في إطار منهجه الأداتي على جعل الفلسفة أكثر واقعية بوظيفة جديدة والمتمثلة في التطهير، فهو بهذا يكون قد انزل الفلسفة من السماء إلى الأرض مثلما فعل سقراط من قبل، ليؤسس معها لفكر براغماتي سرعان ما استقام كفكر متميز بجديته وطبيعة منهجه التي تجعل من الفلسفة أداة لفهم الواقع وتفسيره.

فالفلسفة كما يعرفها ديوي رؤية تهدف إلى تحرير العقول، فالدعوة إلى إعادة البناء في الفلسفة من المهام الأولى للمنهج الأداتي ولن تكون عملية إعادة البناء إلا عملية تطوير وتشكيل مجموعة من الأدوات الفكرية التي توجه البحث مباشرة إلى كل ما يتعلق بالإنسان في الحياة الاجتماعية والتي تنشا منها الفلسفة في احد جوانبها. (ديوي، 1957، ص09).

دعى ديوي إلى التجديد في الفلسفة من خلال معالجة قضايا الحياة الإنسانية المتغيرة بالبحث في أسبابها وحقائقها وذلك بربط الفكر بالواقع أي ربط النظري بالعملي، فالفلسفة بمهمتها الجديدة لا تخرج عن العمل الدينامكي المتنامي في تفعيل الخبرات واستغلالها، وبالتالي تحرير العقول مما علق فيها مع توسيع لمدارك الناس للعالم الذي يحيط بهم تماشيا وما يقدمه العلم الحديث وبالتالي خلق المناهج والطرق التي تظهر النجاح والتقدم، وفقا لمنطق يقوم على جعل الفكرة وسيلة لكل معرفة لتصبح الفلسفة بمنهجيتها عند ديوي استخدام لنتائج البحث كوسائل للدلالة على صدق القضايا، فالصدق عنده هو ما يفيد وما ينفع. (فؤاد، 1993، ص120).

مقدما بذلك نقدا للفلسفات التقليدية وقد حد وظيفتها بحدود المعرفة والتي عبرت عن انساق جوفاء تكرس لفكرة الثبات والذاتية، وعليه وجب على الفلسفة التوجه فعليا نحو حل المشكلات، خصوصا أثناء استخلاص الضرر الذي تؤديه بعض أنماط التقاليد الاجتماعية باعتبارها عائقا أمام التطور وهنا يتحدد

الدور المصيري للفلسفة في تجلياتها الاجتماعية والواقعية في إيجاد الطرائق المناسبة لإحداث فعل التغيير الحضاري، ذلك أن هدف الفلسفة عند ديوي أكبر من مجرد تحصيل المعرفة.

وظيفة الفلسفة إذا وظيفة اجتماعية إنسانية ومعرفية تتحرى المشكلات وتحاول حلها على أنسب وجه ممكن في ظل ما يحيط بالإنسان من تطور هائل على المستوى الاقتصادي والصناعي والعلمي، مما يجعل مهمة الفلسفة صالحة لوقتنا الحاضر، في ظل المشكلات التي تنشا من التغيرات الحاضرة وما تسببه من اثر عميق يزداد شدة وتغلغلا في حياة الفرد ومدى انعكاس ذلك على المجتمع.

(ديوي، 2010، ص09).

أيقن ديوي منذ البداية اليقين الراسخ حول إنزال الفلسفة منزلة الواقع والاحتكام إليه، ما يستوجب فرض منطق العمل المستنير بروح التفاؤل والتجديد وبالتالي نفي وجود حقائق نهائية ومحدودة ذات طابع شمولي حيث قال: "اليوم ليست هناك من نماذج وصور تحتمل طابع الديمومة ويمكن لها أن تقدم شيئا ثابتا مستقر يمكن التسليم به، كما لا يوجد المواد التي يمكننا أن نصوغ منها أهدافا نهائية وشاملة بل على العكس هناك تغيير دائم". (ديوي، 1979، ص128).

وبالرجوع إلى المنهج وطبيعته عند ديوي تصبح الفلسفة وكما أرادها تفكيرا واعيا، عمم مكانته ووظيفته وقيمته في الخبرة قلب الحياة النابض ولعل أهمية هذا التفكير تكمل في مدى تحديده للصعوبات الموجودة في المجتمع والعمل على اقتراح طرق النجاعة والتطور وذلك بفهم الصراعات والنزاعات هذا إن لم نقل المشكلات الموجودة والعمل على إيجاد نقاط الاتفاق والوحدة بينها وإخضاعها لمحك التجريب العلمي لتكون أدوات صالحة لأعمال ممكنة.

(رالف، 1964، ص211).

يمكن اختصار مقومات التجديد ومبررات البناء أو إعادة البناء عند ديوي في الفلسفة في النقاط التالية:

- ارتباط هدف الفلسفة بوسائل التغيير الواقعي فكريا وعلميا بما يناسب التقدم العلمي والصناعي الذي تشهده الحياة.

- نقد الفلسفات التقليدية والتركيز على مكامن العطل فيها خاصة مركزية المعرفة.

- ربط الفلسفة بالتربية التقدمية كأداة لاستمرارية الحياة واعتبارها التكوين الجديد للخبرة فهي عملية نمو داخل الخبرة وبالخبرة وللخبرة، وبالتالي التركيز على الفلسفة في مجالها التطبيقي والحيوي.

- إنزال الفلسفة من برجها العالي واحتكامها لمنطق الواقع بكل تغيراته.

- التركيز على المنهج الأداتي بطبيعته التجريبية واعتباره المنهج الملائم للحياة المعاصرة.

- تعميق الفهم المشترك بين الأفراد والعمل على تحقيق الانسجام في عمليات التطور الاجتماعي بتكريس الحرية والتكيف والنمو والديمقراطية وبالتالي إدراك المشكلات والعمل على تجاوزها.

- تطبيق الذكاء موضوعيا وتوجيهه وظيفيا نحو الواقع الاجتماعي مما يساهم في إعادة بناء قيمه التي تغير المجتمع وتجدده.

- كما اعتمد ديوي على منهج التقييم النقدي للتجربة الفلسفية باعتبار هذه الأخيرة عملية بناء مستمر للتجربة البشرية وما مدي ارتباط نتائجها بالخبرة العامة للفرد داخل مجتمعه، باختصار حاول ديوي جعل الفلسفة أكثر واقعية، أكثر اجتماعية بمهام إنسانية تمجد قيمة العلم والعمل .

4. الخبرة بمفهومها الحيوي/ البعد الوظيفي والاجتماعي:

الخيرة Expérience في اللغة مشتقة من "الخبر" والخبير من أسماء الله الحسنى وتعني العالم بما كان وبما يكون والخبير الذي يخبر الشيء بعلمه، وخبرت الأمر أي علمته.، فالخبرة من الاختبار وخبرت الرجل اخبره خبرا.

(ابن منظور، 1981، ص1091).

والخبرة في عمومها تعني التجريبية من الوجهة النفسية العلمية أي التعارض مع المبادئ العقلانية الفطرية التي تقول بوجود مبادئ بينية لدى الفرد فحين تؤمن الخبرة بالتجربة وحدها ولا تسلم خارجها بغير تعريفات أو فرضيات عشوائية. (اندريه، 1996، ص342).

تعتبر الخبرة أساس المنهج عند ديوي ومقومه الأساسي خاصة في ارتباطه بالتجريبية، علما أن التجريبية والخبرة في أمريكا ككل وعند ديوي على وجه الخصوص، مقترنة بالفعل أو بتأدية السلوك والذي تقاس قيمته بنجاح الخطوات التي يتخذها الإنسان في دنيا الواقع والتجربة الديوية تختلف من سابقاتها فهي لا تعني التجربة المخبرية التي تجري في المخبر ولا التجربة المعقولة كما عند كانط ولا الحية كما عند الانجليز فهي تجربة تقوم أولا وأخيرا على العقل وعلى النشاط العملي الذي يترجم الفكرة ويعبر عنها واقعيا باختصار الخبرة عند ديوي ليست شيء اختباريا Empinical بل تجريبيا Expérimental. (ديوي، جون، 1964، 287).

فقد حاول ديوي تحت تأثير التجريبية وميله لنتائج العلم أن يجعل الخبرة عملية ديناميكية متغيرة ومتطورة تعبر عن الترابط بين الفكر والعمل والتفكير والنشاط والفرد والمجتمع، إنها عملية الحياة بكل ما فيها من تكيف وترابط بل إنها السبيل الذي يحقق مبدأ الاستمرارية وأداة للتفاعل بين الفرد ومحيطه هذا التفاعل الذي يعتبر أساس المنهج عند ديوي. (رالف، 1964، ص99).

فالخبرة الحسية عند البراغماتيين تتجاوز ما تقدمه الحواس من الواقع إذ تستعمل الآثار الحسية والأفعال السلوكية فهي كما يصورها ديوي تتعدى

الانطباعات الحسية المتفرقة إلى العلاقات الاجتماعية التي تنشا من الخبرة أو التجربة، فهي أيضا تمثل الترابط بين ما أنتجته العلوم وما يحقق للفرد من خدمة عملية وعلمية وبالتالي ضرورة وجود منهج جديد يتجاوز المثالية التقليدية ويتعدى الحدود الحسية متجها عمليا لأجل التغيير وتحقيق الانسجام والتوافق بين الفرد ومحيطه، لتكون الخبرة مع ديوي أكثر فاعلية لا تترجم الإدراكات والانطباعات الحسية بل تجعلها مجرد منبهات في شكل علاقات اجتماعية أساسها الخبرة ولا شيء غير الخبرة. (يحي، 1993، ص36).

من أجل ذلك اعتبر ديوي الخبرة أساس كل بناء معرفي جديد والذي تعد التربية والفلسفة أحد أهم مقوماته، فأمن بأن التربية الصحيحة إنما تتحقق بالخبرة، ولا شك من أن الخبرة التي يقصدها هي الخبرة النافعة التي تحقق التفاعل بين الفرد وبيئته ويستثني بذلك كل الخبرات التي لا تتضامن والتي لا تحدث التغيرات المرغوب فيها في سلوك الفرد أي المحاولة أو التجربة والمعاناة وبالتالي لا يمكن الفصل في الخبرة بين العمل الفاعل والمعاناة المنفعلة.

(ديوي، 1954، ص20).

إن الخبرة التي يطلبها المنهج مع ديوي تساهم في تنمية الذكاء وتحصيل الفهم والإدراك وذلك من خلال اعتمادها على المنهج العلمي في الحياة ونظرا للدور الايجابي للعلم في الحياة وجب ضرورة إتباع الأعمال التطبيقية العلمية في المدرسة احد أهم مفعلات الخبرة لربطها بالواقع وبالحياة الإنسانية وبالتالي ضرورة تنظيم الخبرة بوضع خطط ومشروعات تربوية تساعد على حسن استغلال الجانب الايجابي للخبرة ومن ثم تفعيلها واقعيا واجتماعيا وإنسانيا مع ما يتماشى والقيم الحقة للتربية. (ديوي1954، ص24).

كما لا تعني الخبرة التقبل السلبي بل أكثر من ذلك فهي ضرب من التجريب والبحث المستمرين وهذا ما عبرت عنه وظيفة الخبرة عند ديوي، حيث أن العالم والكون حقيقة متغيرة دائمة الصيرورة وبالتالي لا تكون هناك تجربة واحدة بل

تجارب متعددة، فالعالم دائم النمو وليست عملية إعادة البناء سوى الحقيقة الأولى لا الكون المرن المتطور، وعليه تتقدم الخبرة بدورها الوظيفي الحيوي في إطارها المنهجي كتجربة أصيلة تسعى إلى فهم العالم ومسايرة تحركه وتقدمه.

(ديوي، 1957، ص160).

الجدَة عند ديوي تكمن في طرحه التقدمي وهذا ما أبانته الخبرة مؤكدة على دورها الفعال في المنهج الأداتي بكل مقوماته والتي تعد أهمها، كما تعد كذلك تميزا للفكر التجريبي البراغماتي، كيف لا وهي الحياة بأوسع معانيها ربطها ديوي بالتربية والفلسفة والمنهج، لتلازم الخبرة الحياة أكثر فأكثر فتصبح حية أو كما يحياها الإنسان، فالخبرة كما لاحظنا مسالة فعل وعمل قبل أن تكون مسالة معرفة وهنا تتجلى معالم التجديد وإعادة البناء.

ضمن هذا أتى ديوي بفكرة الذكاء كمفهوم جديد يحل محل القديم "العقل" كرد فعل على التجريبيات التقليدية والفلسفات القديمة ككل، فلم يكن ذلك مجرد استبدال لفظي أي لفظة العقل بلفظة الذكاء وكفى، لكنه تغيير أعمق من هذا حيث يكون الذكاء بمثابة منهج عمل، يعمل وفقه الكائن الإنساني ويتفاعل مع الطبيعة وبالتالي تسهيل عملية التكيف، فالعقل الذي يريده ديوي هو نوع من التوجه البصير Intelligent الذي يبحث في كل الشروط ويفعلها.

(محمد، 2004، ص81).

لتصبح هذه المهمة المنتظرة في نظر ديوي والتي تعمل على إعطاء نفس جديد أو مفهوم جديد للعقل مما يسمح بمواكبة تطور العلوم التجريبية وهنا ديوي يشير إلى العلوم الإنسانية قائلا: ".... ليس التجديد المنشود الذي ندعو إليه مجرد تطبيق الذكاء من حيث هو أداة جاهزة، ولكن تجديد يقتضينا أن ننتقل إلى البحث في الشؤون الإنسانية والأخلاقية، الطريقة التي أوصلتنا إلى فهم العلوم

التجريبية على النحو الذي نفهمها به الآن، أي طريقة الملاحظة واختبار النظرية بالاختبار التجريبي. (ديوي، 1957، ص14).

فالإنسان بتفكيره في الحياة ومحاولته التكيف، يستعمل الفكر كأداة في البحث حيث ينتقل من خبرة إلى أخرى بحيث لا يكون "العقل" ملكة منفصلة عن التجربة أو قدرة مفعالة، وإنما العقل الباطن في الطبيعة مثله في ذلك مثل أي شيء أخر له وجود ودلالته من صميم التجربة وهذا بالضبط ما عبرت عنه الأداتية والمنهج مع ديوي. (إبراهيم، 1968، ص63).

لا شك أن الدور الوظيفي للخبرة كأهم مقوم لمنهج إعادة البناء عند ديوي لن يكتمل دون دور الذكاء أو منهج الذكاء الذي يعد هو الأخر دعامة معرفية وضرورة منهجية لعملية إعادة البناء ولتأطير المشهد الفلسفي البراغماتي والمنهج الأداتي عند ديوي.

5. التربية التقدمية ضرورة اجتماعية:

أهمية التربية في فكر ديوي أمر طبيعي، خاصة في زمن يراعي مقامات التربية لما لها من انعكاس على تطور الأمم وتقدمها، ما جعلها اكبر اهتمامات ديوي وأكثرها تطبيقا لمنهجه الأداتي، حيث أكد على أهمية الصلة بين الفلسفة والتربية وذلك في إطار تقديمه لمفهوم فلسفة التربية، خاصة وان التربية ما هي إلا طريقة الفلسفة في التفكير كما اعتبر الفلسفة "النظرية العامة في التربية".

ولعل دعوة ديوي إلى إعادة البناء في التربية نحو تربية تقدمية جاءت كرد فعل على الفلسفات المثالية الكلاسيكية واحتكامها للأفكار المجردة البعيدة عن الواقع ما انعكس على التربية سلبا، خاصة إهمال دور الخبرة في التربية، علما أن إيمان ديوي بالخبرة ودروها الوظيفي يعد أهم مقوم لفلسفة الأداتية عامة وللتربية عنده خاصة، ولا شك أن الخبرة التي يقصدها ديوي هي الخبرة النافعة

التي تخلق تفاعلا بين الفرد وبيئته، مستثنيا بذلك كل الخبرات التي لا تتضمن التفاعل والاستمرارية. (ديوي، 1954، ص20).

هذا ولقد أعاب ديوي على التربية التقليدية عدم تدبرها للخبرات التي يمر بها الطفل أثناء تربيته، بحث عجزت عن تحديد الخبرة المناسبة للعمل التربوي مما اضعف الذكاء وجمد السلوك، فالخبرة التربوية بحق هي التي تزيد من مهارة الإنسان وتسمح له بتقبل خبرات جديدة أكثر فائدة على الطفل ومجتمعه معا ومن هنا كانت الحاجة إلى التربية التقدمية التي تؤمن بالخبرة ودورها الوظيفي في تفعيل الطاقات واستثمارها وذلك عن طريق معيارين أساسيين بهما يتحدد نوع الخبرة وتتحقق وظيفتها التربوية.

1- **الاستمرار**: أو تواصل الخبرة وهو سمة ضرورية في الخبرة، خاصة وان الفلسفات التربوية التقليدية لم تهتم بهذا المقوم أو المعيار كأساس للنمو، فمبدأ استمرار الخبرة ينمي الفرد عقليا وجسميا، فالطفل الذي يتعلم الكلام يكتسب سلاسة جديدة ورغبته في التعلم تزداد توسعا في مجال بيئته فكل خبرة تأخذ من سابقتها وتتصل بلاحقتها في شكل تطور مستمر. (ديوي، 1954، ص32).

2- **التفاعل**: الخبرة كما ذكرنا تعني بالمحاولة والتجربة وبالتالي استمرارية التفاعل والخبرة هي التي تجعل الفرد يعيش دائما في تفاعل مع الأشياء التي تمثل وسطه مع الآخرين الذين يتواصل معهم، كما هي محصلة هذا التفاعل لأنها تحدث عن طريق المحاولة والتجربة مما يثبت فعالية الخبرة خاصة في مونها وظيفة اجتماعية تجمع بين الفرد وبيئته. (ديوي، 1954، ص44).

كل هذا ينتج لنا خبرة تربوية سليمة وبالتالي تربية سليمة تجمع بين التفاعل والاستمرار يراعي الفروقات والقدرات بين الأطفال مما يخلق فرصا للإبداع والتطور.

دائما في إطار التربية التقدمية ودورها التجديدي نجد ديوي يؤكد على دور الذكاء في التربية وفي الشؤون الإنسانية، فهو المنهج الملائم لتوجيه الأفكار وتفعيل الخبرات وتوجيهها وظيفيا واعتبارها وسائل تجاوز العوائق التي يثيرها الواقع الاجتماعي، معتمدا في ذلك على المنهج التجريبي والعلمي. (رالف، 1964، ص73).

كما ربط التربية في تقدمها أو تحديثها بالديمقراطية، ذلك لان المجتمعات الديمقراطية أرقى المجتمعات وأكثرها تقديرا لدور التربية وهذا ما جعله يقارب بين التربية والديمقراطية من خلال مفهوم التربية الديمقراطية عنده، لان بناء المجتمع على أسس ديمقراطية يتطلب إعادة البناء في التربية مثلما كان في الفلسفة وهذا ما أكده لنا مؤلفه الشهير "التربية والديمقراطية"، حيث اعتبر أن الفلسفة نظرية عامة في التربية، حيث تعبر هذه الأخيرة عن مشكلات تشكل العادات العقلية والخلقية الصائبة وكل ما يتعلق بصعوبات الحياة الاجتماعية، والفلسفة "نظرية التربية في أشد جوانبها عمومية". (ديوي، 1964، ص293).

ما دفع ديوي إلى ربط مشروعه الإصلاحي في التربية بالديمقراطية أو بتطبيق الديمقراطية لتشمل كل العناصر العملية التعليمية من اجل بلوغ نموذج التربية الديمقراطية وكل ما تحمله من قيم اجتماعية وإنسانية وأخلاقية مثل التعاون والمساواة والحرية وتكافؤ الفرص وغيرها.

لهذا بحث ديوي في الشروط الأساسية لبناء مشروعه الإصلاحي وبلوغ أفاقه مع ما يضمن نجاح الوسائل والأدوات وبالتالي بلوغ الأهداف، من هنا جاء تركيزه على المدرسة باعتبارها قطب روحي يساهم وبشكل كبير في بناء الوعي وتطوير قدرة الفرد على الفهم والاستعاب، خاصة فهم قواعد العمل الديمقراطي من خلال طريقة التعليم الوظيفي "المدرسة مخبر"، فالمدرسة بصفتها مخبر فعالية الأفكار التربوية تمثل المحيط الاجتماعي الأنسب لغرس قيم الديمقراطية وهذا ما يؤكد قول ديوي "الديمقراطية تتطلب يكون فيها التعليم والتطبيق الاجتماعي

والأفكار الممارسة والعمل والاعتراف بقيمة ما هو منجز، موحدا من البداية من اجل الجميع". (ديوي، 2010، ص23).

فالمدرسة باعتبارها مجتمعا جنينيا يجب أن تعكس كل صور العمل الخلاق في إطارها الديمقراطي العلمي والعملي، وهذا تحديدا ما عبرت عنه مدرسة المختبر أو المدرسة التجريبية التي أنشاها ديوي 1896 والتي سميت بمدرسة جون ديوي.

ليصبح المتعلم هو مركز التجديد ومحور التربية التقدمية ما يؤدي إلى تطوير الطبيعة البشرية زمن ثم بلوغ أفاق الديمقراطية التي تتسم بالمشاركة الفعلية بكل حرية ولا يكون ذلك إلا بالنمو المستمر والمتجدد ذلك لان الفرد ابن بيئته وليس كيانا قائما بذاته ولذاته بقدر ما هو كيان روحي وعقلي يتفاعل وتغيرات المحيط الاجتماعي مما يسمح بتحقيق الذات وإبداعاتها في شكل نماء Self Realisation Growth كمشروع إبداعي يتميز به النمو الفردي، ليس فقط على المستوى البيولوجي بل على مستوى الفكر والأخلاق والعمل لأجل تحقيق فردية متميزة ومتكاملة. (richard, 1993, P554)

إضافة إلى تأثير التقدم العلمي والذي رأى فيه ديوي آمال التربية التقدمية خاصة ما حققته الداروينية في عصره، ما دفعه إلى تطبيع العقل وجعله جزءا من الطبيعة، فالذكاء يعبر عن العقل لا من حيث هو حقائق ومعارف موروثة تنتشر بالتلقين والتحفيز وإنما يعبر عن تنظيم التجاوب العضوي مع المحيط، ذلك أن الطفل لا يوهب الذكاء منذ الولادة بل يكتسبه من خلال تجاربه التي تحدث عند تفاعل عقله باعتباره عنصرا طبيعيا، ذلك لان حياة الإنسان في جوهرها ما هي إلا محاولة متصلة لتحقيق التوافق مع البيئة المحيطة به ويتخذ من الأفكار سبيلا لتحقيق ذلك التوافق وهذا ما يظهر لنا تأثير الداروينية "نظرية التطور والارتقاء". (يحي، 1993، ص138).

عموما استطاع ديوي بفكره الموسوعي الوقوف على أهم المرتكزات العلمية والمنطقية والفلسفية التي من شأنها تغيير النمط التقليدي للتربية وبناء معالم جديدة تتلاءم والتطورات الحاصلة في مختلف مناحي الحياة بالاعتماد على منهج التجديد وإعادة البناء من اجل ربط التربية بالعمل التجربة بالوسيلة بما في ذلك العقل كوسيلة للتجديد وأداة للتغيير والعمل على تنمية المتعلم مركز التجديد التربوي ومحوره الأساسي.

6. خاتمة:

ما يمكن أن نختتم به بحثنا أن المنهج عند جون ديوي، كان أهم شاهد على فكره التقدمي بطبيعته الإصلاحية، والذي لا يمكن إدراجه ضمن دائرة المناهج الكلاسيكية تحت تأثير نمطية الطرح الفلسفي، بل في الحقيقة هو نوع من البناء النقدي التقييمي، المؤمن بروح التقدم والتجديد، ما جعله يؤسس لفكرة إعادة البناء، والتي مست كل جوانب الحياة، لتأخذ دلالات وابتعاد إنسانية واجتماعية أكثر منها معرفية، مجسدة بذلك إسهاما فاعلا يستحق منا كل الاعتناء والانتباه كمؤشر مهم في بناء أفكارنا والسير بها قدما كأدوات للتجديد والتغيير.

تجديد تحركه النزعة العلمية التي أدت إلى التطور العلمي والصناعي بالإضافة إلى الخبرة ودورها الفعال، ناهيك عن منهج الذكاء وتفعيل دور العقل اجتماعيا وموضوعيا، خاصة وان التجديد عمل عقلي يتطلب اكبر قسط من الدراسة العلمية والعملية، كما يتطلب وعيا بأحوال الحياة المختلفة، ما دفع ديوي وفقا لهذا إلى نقد الأنماط التقليدية في الفلسفة والتربية، ودعوته إلى بناء معالم جديدة تتلاءم والتطورات الحاصلة في مختلف جوانب الحياة.

ذلك لأن تغليب كفة مركزية المعرفة وتقديس الفلسفة لذاتها والتفريط في الجانب الواقعي العملي، هو بمثابة إفراغ للفلسفة من محتواها الحقيقي في كونها اجتماعية وإنسانية، حيث ربطها ديوي بخدمة الحياة وتامين استمراريتها طالما أنها

متغيرة في كل المجالات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والعلمية، وهذا من صميم فلسفته الأداتية وبنائه المنهجي الذي اهتم وكما لاحظنا سابقا بتنمية الفرد وجعله أساس كل تطور اجتماعي ديمقراطي تسوده الحرية.

بناء على الاعتبارات السابقة فان مبدأ ديوي الفلسفي وتوجهه المنهجي يكمن في إعادة رسم خارطة البحث الفلسفي، لتمكينه من الانتقال من وضعية الركود بكل ما يحمله المفهوم من انغلاق وتعطيل إلى وضعية إعادة البناء وكل ما تطرحه من آفاق للتطور والتقدم، وعليه آن الأوان للفلسفة بمباحثها أن تنزل من برجها العالي لتكون أكثر واقعية، أكثر إنسانية بتجديد يمس كل مفاهيمها المتعلقة بالنظم الاجتماعية والسياسية والتربوية والأخلاقية، بمنهج إعادة البناء، بناء القيم الاجتماعية التي تغير المجتمع وتجدده.

7. قائمة المراجع:

الكتب

- ابن منظور. (1981). *لسان العرب*. تح: عبد الله الكبير وآخرون.ج2. مصر: دار المعارف.

- إبراهيم. زكريا. (1968). *دراسات في الفلسفة التقليدية* "الجزء الأول"، مصر: دار مصر للطباعة والنشر.

- المهرج. عبد الهادي. (2008). *الفلسفة البراغماتية أصولها ومبادؤها*. لبنان: دار الكتب العلمية.

- جيمس. ويليام. (1965). *البراغماتية*. تر: علي العريان. القاهرة: دار النهضة العربية.

- جديدي. محمد. (2004). *فلسفة الخبرة. "جون ديوي نموذجا"*. ط1. بيروت. لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

- ديوي. جون. (1954). *الخبرة والتربية*. تر: محمد بسيوني ويوسف الحمادي. مصر: دار المعارف.

- ديوي. جون. (1957). *تجديد في الفلسفة*. تر: أمين مرسي قنديل. مصر: مكتبة الانجلو مصرية.

- ديوي. جون. (1964). *الديمقراطية والتربية*. تر: متى عفراوي، وزكريا ميخائيل. القاهرة. مصر: لجنة التأليف والنشر.

- ديوي. جون. (2010). *الحرية والثقافة*. تر: أمين مرسي قنديل. مصر: مكتبة الأسرة.

- ديوي. جون. (2010). *إعادة البناء في الفلسفة*. تر: احمد الأنصاري. مصر: المركز القومي للترجمة.

- زكريا. فؤاد. (1993). *أعلام الفكر المعاصر*. ط1. بيروت، لبنان: دار الجبل.

- عبد المنعم. راوية عباس. (1996). *جولوكا ما الفلسفة التجريبية*. بيروت، لبنان: دار النهضة العربية للطباعة.

- قام. يعقوب. (1985). *البراجماتزم مذهب الذرائع*. ط2. بيروت، لبنان: دار الحداثة للطباعة والنشر.

- لالان. اندريه. (1995). *الموسوعة الفلسفية*. ج2. تر: خليل احمد خليل. بيروت، باريس: منشورات عويدات.

- محمد. قاسم محمد. (1999). *مدخل إلى المنهج العلمي*. القاهرة. مصر: دار النهضة العربية.

- هويدي. يحي. (1993). *قصة الفلسفة الغربية*. القاهرة. مصر: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

- وين. ن. رالف. (1964). *قاموس جون ديوي للتربية*. مختارات من مؤلفاته. تر: محمد علي العريان. مصر نيويورك: مكتبة الانجلو مصرية، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

– Richard. shusterman. (1993). *le liberalisme pragmatique*. Paris : W 555-556 Aout Septembre.